الموازنة

بين الالعوبة الالهية ورسالة الغفران

— او —

بين ابي العلاء المعري ودانتي شاعر الطليان

= ٩ =

ودونك برهان البلاغة الشعرية مع فقدان سواها قال الشاعر :

(وجاوزوا ارسناساً معصمينَ به قبل المجوس الى ذا اليوم تضطرم)
(دُهمٌ فوارسها رُكّابُ أبطنها وسمهريته في وجهه عَلَمُ)
(نِتاج رأيك في وقتٍ على عجلٍ قد أفسدَ القول حتى أحمدَ الصممُ)
(عبرتَ تقدمهم فيه وفي بلدٍ ان الكرام باسخاهم يداً خُتموا)

او كقوله :

(والماء بين عجاجتين مخلّص تحت الحسان مرابض الغزلانِ)
(بحرٌ تعوّد ان يذمّ لاهله للمفرقان به وللتقيانِ)
(وحشاه عادية بغير قوائمٍ من دهره وطوارق الحدثانِ)
(تأتي بما سبت الخيول كأنها عُقمَ البطونِ حوالكَ الالوانِ)

فهذا الشعر هو من أعلى طبقات الشعر ، والوصف فيه معجز المباراة ، غيرانه تنقصه حلقات الاتصال لتأتلف مبانيه ، وتظهر لنا معانيه ، ولكننا اذا حللناه الى ثير بدا لنا خلط موسوسٍ او هذيان محمومٍ

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وعندنا ان دانتي عند نظمه الأُلعوبة كان قد اعتراه الوسواس او الصرع لما توالى عليه من مصائب الدهر ، وأولها خذلان حزبه ، ثم ضيعة مطامعه ، ثم خيبة آماله ، ثم نفيه من بلدته والحكم عليه اخيراً بالقتل ، فخرج من وطنه طريداً شريداً لا يملك فلساً كما تقدم اجمال ذلك معنا في ترجمته .

ولا عجب بعد هذا اذا بلي بداء الصرع او الوسواس ولا سيما اذا كان في طبعه استعداد لذلك .

واذا صح زعمنا هذا ولا نراه الا صحيحاً ، زال الاشكال في وقوع الخلط الكثير الذي رأيناه في الالعوبة عند الجمل الكثيرة التي لا يستخرج لها معنى ، ثم اللعنات التي صبها على الأساقفة والباباوات وإقرارهم في جهنم ، مع صلابته في دينه ، ثم استدعائه ملكاً غريباً لاكتساح بلاده مع شدة وطنيته ، ثم في مايرويه عن مشهوداته في جهنم والمطهر والفردوس ، رواية صادرة عن يقين تام برؤية ذلك كله رأي العين وأخيراً تصريحه بان روح الله حلت فيه . على ان الظلمات التي يردد ذكرها كثيراً ليست عندنا الا نتيجة طبيعية للسوداء التي كانت تصاحبه .

وما دانتي باول موسوس نظم فعجب سامعيه ، فالروايات عن موسومي الشعراء عند العرب كثيرة وأشهرهم الموسوس الذي يقول :

(حجبوها عني الرياح لاني قلت يا ريحُ بلغيها السلاما)
(لورضوا بالحجاب هان ولكن منعوها لكيدهم ان تناما)

ثم الملقب بالمجنون مجنون ليلى ، وممن يقال انه بلي بالصرع او الوسواس الشيخ عمر الفارضي وقالوا دخل عليه بعض أصحابه فرأوه يدور حول بركة الجامع ويقول :

(ستي متي من حقنا إي والله حقاً حقا)

ويصفق بيديه ، وفي بعض ابيات تائيته الكبرى من الخلط مايرجح هذه الرواية .

ولا نطيل في تعداد الموسوسين او المصابين بالصرع من الشعراء والكتاب والعلماء فهم عند جميع الامم وحسبك ان باسكال وهو احد افراد الدنيا ذكاء وعلماً ، قد اعتراه الوسواس كما أثبت ذلك غير واحد من مترجميه ، بل زعم بعض المحققين من الناقدين

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

ان بعض الانبياء كان مصاباً بالصرع او بالوسواس و يسمي الموسوسون بالفرنسوية (Les Hallucinés) .

ومن أعجب العجب بل مما يحار له الناقد اذ يرى اكثر الذين قلّبوا الطرف في الالعوبة الالهية من الشرّاح العلماء والنقّاد الالباء أجمعوا على انها آية الايآت فيما تضمنته من الفصاحة والفنون ، وانها معجزة لم يدرك شأوها من جاء بعده من الشعراء .

نعم أشار بعض الشراح من الناقدين الى ان دانتي لم يكن من المبتدعين بل من المقلدين ، غير ان الجماهير وفيهم اكثر شراحه وناقديه من جميع الامم كانوا ينظرون الى الالعوبة الالهية بعيون اكلّها الرضى عن نقد العيوب ، او ان رهبتهم مما ذكره في جحيمه ملكت عليهم أنفاسهم فلم تجر أقلامهم بغير الاطراء والاعجاب ، وجل اولئك ممن كانوا ينظرون اليها بطرف الخشوع كأنها من الكتب السماوية لفرط تحمسهم الديني وهو كما تعلم قد يعمي و يصم ، حتى انهم اذا مروا بجملة تنافي تعليم الكنيسة نفسها ، قالوا ان فيها لنظراً ، كأنهم يرددون ان من الكلام لحكمة .

ولعل ذلك يرجع الى أسباب : منها شدة تعصبهم الديني ، ومنها التيار الجرّاف تيار الرأي العمي ، وقد مرّ قبل هذا في ترجمة دانتي ما كان من ظهور دعاة له بعد موته بمدة طويلة وكيف انه كلما طالت المدة على زمن وفاته ، زادها الراوون خرافات سموها معجزات (عجائب) ألصقوها به وزادت في عدد أشياعه ، وجلهم من جهلاء العامة وما اكثرهم في كل مصر وفي كل عصر ولاسيما في القرنين الرابع عشر والخامس عشر .

ومنها ان الالعوبة وهي أغنيات كانت باللغة العامية يومئذ كما علمت ، وابن من هؤلاء لغة ڤيرجيل وهم لا يفقهون منها لفظاً . ومنها انها تبتدي في جهنم والتفصيل عن سراديبها ومغاورها ، وسلاليمها وكهوفها ، واعوجاجاتها ودياميسها ، وأبالستها وظلماتها ، ونيرانها القاتمة ووحوشها الغريبة وعذاباتها التي لم تخطر على قلب عاقل الى تهويل بالوصف ينزل الهلع والرهبة على أعظم القلوب شجاعة ، و ينشر الغم والكآبة على أوضح الوجوه بشراً ، يوم كانت سيوف محاكم التفتيش مجردة فوق الاعناق في هاتيك الاقطار ، ورسل تلك المحاكم الظالمة البربرية تجوس خلال الديار ، لاستراق لفظ

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

يشف عن راحة او هناء ، ومسارقة شفة تبتسم عن رجاء ، وويل يومئذ للمتهمين ، اذ لا طهور لهم من تلك الأوزار ، في شرع تلك المحاكم بغير الزيت والنار .

فهل يعقل ان يغنّى في مثل تلك البلاد الشقية بغير هذه الاغاني ؟ ولا سيما ان الحكام فيها لم يكن يروق لهم سماع سواها ، وهم وعمالهم المسيطرون يومئذ على أعمال الناس وحركاتهم ، والناشرون فوق الرؤوس سحب التهويل والكآبة والارهاب ، فلا بدع في انتشار الالعوبة انتشاراً يضمن لها هذا الاثر الخالد بين قوم كانوا لا يرون الحياة في هذه الدنيا سوى النوح وقرع الصدور ، لنيل الغفران او للنجاة من أثمة ظالمة تناهوا في الفحشاء والشرور .

ومنها ان هوى الجمهور مع المظلوم في كل حين ، او مع من ادعى المظلمة وان كان هو الباديء ، فهم ينظرون اليه في حال شقائه وذله و يسدّدون سهام قدحهم نحو خصمه ، وقد مرّ بك ما نزل بدانتي من البلاء ، فلا بدع ان يكون ذلك من اعظم البواعث على الشفقة عليه وبُعد شهرته ، وهذا في التاريخ ولا سيما تاريخ الآداب أكثر من ان نقيم عليه الدليل ، وحسبك ما ذكره اكثر نقادي ويكتور هوجو ، من ان نفيه بامر الامبراطور نابوليون الثالث ، كان من أجلّ الاسباب في زيادة شهرته ، وادعاء مريديه له بالزعامة الشعرية في عصره ، بل غلوّ بعضهم الى أبعد من ذلك .

ونعود الآن الى ذكر الرأي العمي[1] فهو يجرف الرأي القصري ، كما تجرف الامواج عند اشتدادها كل ما أمامها ، وقد وقع في التاريخ وغيره من العلوم أغلاط لجماعة من كبار العلماء كان منشأها تيار الرأي العمي ، فمنهم من تنبّه الى غلطه فأصلحه بعد حين ، اي بعد السكون . ومنهم من سُجّل عليه غلطه اذ عاجلته قبل التنبه عليه المنون . ولتفصيل ما يعرض لامثال هؤلاء من عقلاء الناس حتى تراهم عند تلاطم التيار ينقادون للرأي العمي بغير انتقاد ، فيضيع الحازم حزمه والحليم رزانته ، مما نكلم فيه كثير من الفلاسفة ولا سيما فلاسفة علم النفس ، وليس هذا محل الافاضة فيه فنقتصر على الاشارة اليه ، للبرهان على ما كان من تهافت كثير من العلماء والناقدين

(١) الرأي العمي نسبةً الى العامة والقصري نسبةً الى الخاصة .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

في رفع دانتي الى المنزلة التي احلّه فيها العامة ، وكان من حقهم او من حق النقد عليهم ان يكونوا اكثر تثبتاً ، وأوفر انتقاداً .

ومن أظهر الاسباب في شيوع الالعوبة الالهية ، ورفع صاحبها الى العرش الثالث لملوك الشعر عند جميع الامم الفرنجية ، هو موت اللغة اللاتينية وانتشار اللغة العامية بين سائر طبقات الامة الطليانية ، فلما بدأت هذه تتنبه من رقادها ، وتتحرر من قيود الاستبداد ، وتنظر الى نفسها جماعات جماعات ، وتتوثب الى الاتحاد ، شأن الامم في أوائل انتباهها بجمعها لغة واحدة ، نظرت الى قديمها في العلوم والآداب فلم تجد لها شاعراً غير دانتي طبع بطابع اللغة الطليانية كثيراً من أحداثها ؛ بل جعل تلك اللغة العامية ذات قواعد ملأنه من نظم تلك القصيدة الطويلة الشاملة (الالعوبة) . فكان في عيون الامة الطليانية يومئذ محيي آثارها ومؤسس لغتها وركن فخارها ، وطالعت ما انتابه من الويلات وما عاناه في سبيل الرجوع الى وطنه ، فانصرفت الانظار عن جملة ما في الالعوبة من العيوب ، ونظرت اليه نظر المحب الى المحبوب ، فقالت مع شاعرنا ومن اين للوجه المليح ذنوب .

وآخر القول اذا كان انشاء المرء مرآة عقله ، واختيار اللبيب دليل ذوقه ، فلا ريب انهما مرآة قلبه وصورة عواطفه ومتجلى أخلاقه وآدابه ، واذا رمنا ان نستشف من انتقاد رسالة الغفران والالعوبة الالهية ، مدى عقلي صاحبيهما ، ومتجلّى عواطفهما وأخلاقهما ، لنفي هذه الموازنة حقها من الانصاف ، نرى البون شاسعاً بينهما فان رجاحة عقل المعري واضحة على كل صفحة من صفحات الرسالة ، ولما كانت رسالة ابن القارح في نقيل الشرع والتزام حدوده ليست من معتقده ، وكان تقريظها حتماً عليه ، اذ انتقاد الشعر وكتب الادب وتقريظها عادة قديمة في الامم نرى حديثها في تواريخ اليونان والرومان ، واما عندنا نحن العرب فيصعد ذلك على ما وصل الينا ، الى حكاية حوليات زهير والمعلقات ، ثم الى مساجلات ابي نواس وصريع الغواني وابن الجهم ، ثم بعدهم الى بشار بن برد وابي العتاهية وجماعتهما ، ثم الرواية عن قول ابي تمام للبحتري عندما قرأ عليه شعره ، نعيتَ اليَّ نفسي يا فتى ، ومثل ذلك اليوم عند الفرنسيين وغيرهم من الفرنجة ، فانه قلَّ ان يوجد بين أدبائهم بل علمائهم ، ممن

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

يؤلف كتاباً دون ان يطلع عليه احد أصدقائه من العلماء ، واكثر تلك الكتب تطبع مصدرة بمقدمة ممن طالع ذلك التأليف هي في تقريظ الكتاب .

قلنا ولما كان تقريظ رسالة ابن القارح حتماً على ابي العلاء ، صوّره حلماً رآه كأنه يقول لابن القارح ولطالعي رسالته ، ان جزاء من يلتزم هذه الحدود كما قال صاحبي ، هو هذا الحلم الذهبي ، ثم لم يشأ ان يجعل هذا التقريظ كله مزاحاً او مداعبةً وهو الفيلسوف الزاهد المتقشف ، فملأه فوائد وتحقيقات شعرية كانت هي محور آداب القوم في عصره ، وبعض اشارات وتلميحات علمية كقوله : « وبيني وبينه مسيرة الوف أعوام للشمس التي عرفت سرعة سيرها في العاجلة » والاشارة بها الى القياس بسرعة النور في علم الهيأة .

وكقوله : « ويفترق اهل ذلك المجلس بعد ان أقاموا فيه كعمر الدنيا أضعافاً كثيرة » فهل من وصف لطول ذلك الوقت وسرعة مروره بالمقايسة مع لفظ «الابدية» أبدع من هذا الوصف .

وكقوله : « وهل يعرف البشر من علم النظيم الا كما تعرف البقر من علم الهيأة ومساحة الارض » الى غير ذلك من اللطائف .

اما ركن رسالة الغفران ، فهو الرحمة والحلم والحنان ، وهي عواطف صاحبها وأخلاقه التي هي كلها تسامح وعقل وفلسفة فانه لما ألقى نظر حلمه على ذلك الفردوس الموعود . فكّك بل طحن بحكمته تلك الأقفال والقيود ، وفتّح ابوابه وفسّح رحابه ، ووسّع فيه الاماكن لجميع البشر بل للحيوان ايضاً ، اما لفعل خير ولو طفيف ، او للفظة صدق ، فلم يدع جاحداً مشهوراً الا أنزله بذلك النعيم ، ولا وثنياً الا سلسل في حلقه ذلك التسنيم ، وسقاهم كلهم ذلك الشراب الطهور القديم ، ومتعهم كلهم بالحور والقصور والشباب المقيم ، ولسان حاله يقول : ما ضرّ ربك ان يسكن مخلوقاته كلها هذه الجنات ، وهل تسعكم وحدكم وتضيق عنهم هذه السموات ، يا ضيقي العطن وناشري الاوحن ومعلي أفانين العداوات ، ثم غمزهم غمزةً فألقى الأخطل و بشار بن برد في النار لعينيهم والاول نصراني والثاني مسلم كما تعلم . ليحكم في ذلك العقلاء وبضدها تتميز الاشياء .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

على اننا ما خطر ببالنا مرةً ابو العلاء الا حرنا في امره ، ذلك انه على ماأوضحنا اول هذه الموازنة كان من الفلاسفة الزنادقة الذين يهزأون بالبعث ، الا انه ملأ شعره مواعظ بالزهد في الدنيا والبعد عن مسراتها واجتناب سائر لذاتها حتى الخمر والنساء ونادى بقصر العمر وما يعقبه من الفناء وهذا كله عين ما يقول به اهل الاديان كقوله وهو اقصى ما يقول به المتقشفون منهم .

(ضحكنا وكان الضحك منا سفاهةً وحق لسكان البسيطة ان يبكوا)
(تحطمنا الايام حتى كأننا زجاجٌ ولكن لا يعادله سبك)

وكقوله :

(رويدك قد غررتَ وانت غرٌّ بصاحب حيلةٍ بعظ النساء)
(يحرم فيكم الصهباء صبحاً ويشربها على عمد مساء)
(يقول لكم غدوت بلا كساءٍ وفي لذاتها رهن الكساء)
(اذا فعل الفتى ما عنه ينهى فمن جهتين لا جهةٍ اساء)

وغير ذلك من أمثاله كثير جداً وفي مراجعة لزومياته غنىً عن الاضافة فيه .

وكنا كما قلنا في حيرةٍ الى هذه الساعة من امر ابي العلاء لما نراه من التناقض بين مذهبه ومقاله فهو شديد على النساء في الحجاب ووجوب الاستقرار بالبيوت مع علمه بانهن في طبيعتهن البشرية لا يختلفن عن الرجال بل عن سائر الحيوان ، من النزاع الى الشمس والهواء ، والاستمتاع بكل ما في الكون مما تجيش اليه النفس وتستلذه الحواس الخمس .

وهو شديد عليهن في ترك التبرج مع انه يحسب عند بعض علماء الطبائع من أخلاق الانثى حتى في بعض الحيوان ومع انه لم ير امرأة قط (سوى أمه في طفولته) ولم يتزوج ولم يعرف أنثى لقوله وهو القائل الصادق :

(هذا جناه ابي عليَّ وما جنيت على احد)

وهو شديد على شاربي الخمرة مع انها قديمة جداً وقد أحبها البشر في كل عصر بل عبدها كثير من الامم كاليونان والفينيقيين وغيرهم ونحتوا آلهةً لعبادتها وتفننوا في تصويرها والعرب قبل الاسلام وبعده ممن اوغلوا في ذكر لذتها ومنافعها وتصوير

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

شتى محاسنها ، ولم يحرمها من الاديان سوى دين الاسلام وفيلسوفنا كما علمت ليس من الاسلام في شيء .

وهو شديد على اهل اللهو وسائر اللذات الجسدية يأمرهم بقهر الجسد ومحاربة أميال الجسم الطبيعية ويتهددهم بقصر العمر و ينذرهم بالفناء مع انه القائل :

(تعب كلها الحياة فما أعـ ـجب الا من راغب في ازدياد)

وان كل حيّ مصيره كمصير النبات ، فما ضرهم — ان كان كما يزعم — انتهاب هذه اللذات ، والتمتع بما أباحته لهم الطبيعة من المسرات ؟ وما الذي يجب ان يتوقاه المرء اذا هو لم يعتد على احد من المخلوقات ؟

نقول ان في نواهي ابي العلاء وتشدده برهاناً لمع الساعة أمامنا وحل لغزاً طالما امتنع علينا حله ، وذلك ما أوردناه آنفاً من جرف الرأي العمي كل ما أمامه ، واستدراج أعقل الناس اليه من حيث لا يشعر ، حتى ليضيع الحازم حزمه والبصير رشده ، وتختلف نتيجة المنطق عن مقدمته ، وهو التناقض الذي أشرنا اليه كما رأيت .

فان عصر ابي العلاء كان عصر تشدد في الدين لما انتاب الدولة العباسية العظيمة من خسارتها كل ما كان بيدها الا اسم الخلافة والدين ، وانت تعلم ان المرء حريص على ما بيده من ملك او سلطان او جاه او مال حتى اذا ما فقد شيئاً منها تمسك بسواه واذا أصيب بفقدان جميعها نظر الى ما حوله وفتش عما يستطيع امتلاكه والتباهي به ولو كان ذلك الملك شيئاً معنوياً كالدين فيقبض عليه بكلتا يديه حاسباً انه القوة التي بها يغلب الاعداء و يسترد المسلوب و يستعيد المجد والملك او انه هو يغني عن كل ذلك وهذا ما أصاب غير أمة من الامم كالبيزنطيين في آخر دولتهم .

فلا بدع والامر على ما ذكرنا ان يكون الرأي العمي لعهد ابي العلاء محصوراً في الزهد والتقشف والصلاة والحجاب والنهي عن الخمر واللهو وسائر اللذات وان يجرف تيار هذا الرأي حصافة فيلسوفنا فتناقض نصائحه صريح مذهبه وتختلف نتيجته عن مقدمته في بعض أقواله .

وفي الختام فلننظر في مرآة دانتي وهي الالهوية الالهية ، اما من حيث العقل وإصابة الرأي ، فيصعب جداً على الناقد المنصف ان يرى لها في هذه المرآة شكلاً

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

و خيالاً فاختلط فيها أضاع الاصابة وغشى على العقل بستر كثيف حتى ظهر فيها رجل أوهام وخرافات كان حفظ في صغره شتى كتب التاريخ والعلوم ثم أصيب في كبرة بحمى شديدة غادرته يردد في هذيانه اكثر ما حفظه متداخلاً بعضه في بعض حتى ظهر بهذا الخلط العجيب فنحن لا نرى عن رأينا تبديلاً فيما بدا لنا من وسواسه .

اما أمياله وعواطفه فقد بدت لنا غريبةً عن مواطن اللطف بعيدةً عن العفو والرحمة ، لا تعرف للتسامح معنىً ، ولا تقيم للحنان والاعتذار وزناً ، او هو سواد انسان لكنه قُدَّ من حجر ، ومع انه كان زوجاً واباً فلم نسمع منه حرفاً باسم زوجته او اولاده بل لم نسمع منه شكوى فراق او صوت اشتياق او عبارة يشعر منها بانه يفكر لحةً بهم ونرى حب المجد والاثرة ظاهراً في كثير من أسطرها الى الغاية القصوى .

اما أخلاقه فعبوس وكآبة وحقد وشراسة وحب انتقام وقصر نظر لا يعرف من الحلم ورحابة الصدر الا اسمها وعنده ان كل مخلوق عاقل على الارض منذ وجدت حتى آخر الدهر يجب ان يزجّ في نيران جهنم السوداء او انه محكوم عليه بها ان لم يؤمن بكل ما يؤمن به دانتي لا عفو ولا سماح ولا شفاعة ولا رأفة ولا غفران وانت ترى مابين المعري ودانتي من البون الشاسع في النعقل والاخلاق . وان رسالة الغفران التي تنطوي على أقصى مزايا التسامح والرحمة والحلم بتحويلها عن موضوعها السامي باتت في فم دانتي رسالة لعنات وانتقام وكأن شاعرنا العربي نظر اليها فقال :

(تقول هذا مجاج النحل تمدحه وان تذمَّ تقل قيءُ الزنابير)

وترينا تلك المرآة صفحات كثيرة من علوم عصره وحوادثه مخلوطةً خلطاً عجيباً فلاهوت القديس اغوسطينوس باساطير اليونان ، وهوميرس وفيرجيل وصلاح الدين وأفلاطون باجتماع واحاديث الصبابة والهيام وما يمانيه دانتي من نار الشوق والغرام مع الغبطة او العزة الالهية أي الله ذاته ... وليس في كل ذلك اي فيما يعرض به من العلوم رأي لراويها او اعتراض او بيان او شرح ، فكأنها صورة كتاب ميت لا صوت لسان حيّ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

هذا ما وصل اليه بحثنا وتمحيصنا ونرجو ان نكون قد أصبنا فيه شاكلة الصواب ، وأمطنا به منيع النقاب ، عن مخدرات نزلت عليها آية الحجاب ، وتوارت وراء مغلقات الأحقاب .

عضو المجمع العلمي العربي

قسطاكي الحمصي